

رأى الأستاذ توحيد السليح حداد

في كتابي: «الوعي القومي» و«دراسات عن مقدمة ابن خلدون»

أهدى أحد الفضلاء في لبنان هذين الكتابين
القيين إلى صديقنا الأستاذ الكبير محمد توحيد
السليح حداد ، فلما قرأهما كتب إلي كتاباً جاء فيه :

ذكرتُ في بعض ما كتبت « للرسالة » أن من أصحاب
الفكر والدوق للمعاني مَنْ قال : إن الثقافة وعي أطراف صالحة
من أثمار المقبول ، العملية والفنية والأدبية ، بها يلتفت المثقف
إلى المبادئ والأسباب والقوانين ، ويرشد قومه إلى الأصلح
لحالمهم ، والأنتع لترقيتهم ، والأخلق بالإنسانية

وكتاب « الوعي القومي » لبادعه الفاضل ، الدكتور
قسطنطين ذريق ، أستاذ تاريخ الشرق بالجامعة الأمريكية في
بيروت ، ثمرة شبيهة من أثمار الثقافة الجديدة ، ومثال رائع يتجلى
فيه معناها

هو كتاب يبشّر حال الشرق العربي الحاضرة بمُجرها
وُجرها ، ويعرف وسائل التخلص منها ، ويهديه - إذا هو أراد
أن يهتدى - سبل الأهداف والمثل العليا والحياة بين الأحياء ،
ويحثه على سلوكها

ولقد جمعت أجزاءه ووحدت توجيهاته الحكيمه فكرته
الأساسية مركّزة في عنوانه المحكم البليغ ، صرفة على
كلامه السهل الممتنع الرفيع من أول البحث إلى آخره ، حيث
هدأ القلم ، وحيث تفجّرت من سنّه حرارةٌ وطنية وعاطفة
إنسانية

قوّاه صاحبه بروحه العلمي ووضوح حجته ، وجمّله بنور
بصيرته وبراعته الكتابية الفنية وبكياسته في التمهيد للنقد وبيان
الملل ، ولطف مدخله في النصيحة . وقد شف كلامه عن عمق
إيمانه بمقائيق دعوته ، وحبه البين لأثمار العقول ، حباً يُكسب
تلك الثقافة التي وصف ، وكلما أحرزنا حظاً منها تكشّفت لنا
الأهداف القومية والمثل العليا التي لم يتورط في تعريفها الآن ،
لحكمة لم يرد بمض النقاد أن يدرّكها

أضف إلى ذلك فضل أخلاقه الكريمة من عفة لسانه في
صراحته ، ومن نزاهته عن التمصب والتحزب ، وصدقه
وإخلاصه في الدعوة للوعي القومي ، وكرامته وتواضعه تواضعاً
يهبه العلم والأدب والتربية

استقصى واستوعب ، وشخص الداء ووصف الدواء ،
شارحاً دعوته في إيجاز نير ، حتى يرى مَنْ لا يرى ، ويعلم مَنْ لم
يعلم ، وبمهم من لم يفهم ، ويعمل من لا يعمل على مصلحة قومه
« في الوعي القومي » آية للزمان ومدعاة إلى الاطمئنان على
مستقبل تهمناه ، سواء أ كان بعيداً كل البعد أم قريباً كل القرب
من أجل ذلك كله قد لا أكون مبالغاً إذا أنا زعمت أن
هذا الصنيع الأساسي النفيس ، المبتكر بوحده وبمميزاته وصرماه
وظهوره في الشرق العربي في إبان الحاجة إليه ، هو أجل كتاب
بين الكتب العربية التي وضعت منذ أطفأ الدهر نور هذا الشرق

أما الأستاذ الكبير ، ساطع بك المصري ، فقد أبدع كذلك
في « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » إذ جاءت مصداقاً
لتقريره « أن الطرافة في الدراسات لا تتأني من جدة الموضوع
وحده ، بل قد تتولد من طرافة الطريقة والانجسار أيضاً » ،
فإنه خدم قومه بأجابه العلمي ، وعرف الأصول التي اهتدى
بنورها في دراسة المقدمة ، وكان اليبادى في العربية بدراستها على
الطريقة العلمية فيما أعلم

ذكر ، مثلاً ، أن كل عالم ومفكر يشاطر بوجه عام
معاصريه أكثر أخطائهم ، ولذا فإن منزلته « لا تمنع بملاحظة
جميع الآراء المصائبية والخطائفة النبتة في كتاباته ومؤلفاته المختلفة ،
بل تنقّر بملاحظة الآراء المبتكرة التي يسمو بها على معاصريه ،
والحقائق الجديدة التي يضيفها إلى المكتسبات الفكرية البشرية ،
والخدمات التي يقوم بها بهذه الصورة في سبيل تقدم الأفكار
والعلوم » ؛ وعرف طرائق النقد الداخلي والنقد الخارجي والنقد
التفسيري ؛ ولاحظ أن مباحث المقدمة قيمان : « المباحث
الأساسية ... نجوم حول علم العمران وأسس التاريخ مباشرة » ،
و « المباحث الاستطراذية التي تأتي تمهيداً للأبحاث الأصلية
أو إتماماً لها » ؛ وأن عمل ابن خلدون في هذه « لا يتعدى
حدود النقل والجمع ، والمرض والتلخيص ، والترجيح والتسجيل ؛